المحاضرة رقم 03: الواقع الاقتصادي في بلاد المغرب الإسلامي–التحول والتطور–

❖ التحول في الحرف والصناعة بعد الفتح الإسلامي

بما أن الاسلام يحث على العمل في مختلف المجالات الاقتصادية، فان الفاتحين العرب طبقوا ذلك المبدأ مع أهل بلاد المغرب منذ تأسيس القيروان أول مدن المغربالإسلامي ، فقد طبقوا تعاليم الشريعة الاسلامية امتثالا لقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾سورة الجمعة (10)**، و يقول أيضا: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾سورة الملك(15)**، ويقول سبحانه حاثا على الزراعة واستغلال الأرض: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾سورة البقرة(268)**.

وأخرج البخاري عن ابراهيم بن موسى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "**ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**"، كما أخرج عن يحيى بن بكير أن الرسول صلى الله عليه و سلم قال: "**لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه**".

وكان الولاة قد أدخلوا بلاد المغرب في الدورة الاقتصادية للدولة الاسلامية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري، فقد كان حسان بن النعمان يقسم الفيء والأرض بين البربر الذين أسلموا على يديه ودون الدواوين، وكان موسى بن نصير ينقل العجم من الأقاصي إلى الأداني، وشجع الناس على الزراعة. وأزال يزيد بن حاتم الفساد من إفريقية وأصلحها، ورتب القيروان في أسواقها، وجعل كل صناعة في مكانها، كما استغل عن طريق الوكلاء أراض في فحص القيروان ونافس ابنه إسحاق مربي الأغنام والجزارين في تربية الأغنام، وكان أغلب قضاة وفقهاء القيروان يتعاطون التجارة مثل عبد الله بن فروخ وعون بن يوسف الخزاعي أو الحرف مثل زيد بن سنان الذي كان خياطا ومروان بن أبي شحمة، وكان يعمل بيده الطوب. وبهذا الشكل شهدت بلاد المغرب ذلك التحول في المجال الاقتصادي الذي استفاد من الخبرات المكتسبة من الحضارات السابقة القرطاجية والرومانية ومن الحضارة العربية الإسلامية الوافدة عليها.

❖ الصناعة والحرف في الفكر الإسلامي:

الدليل على مكانة هذا النشاط هو التنظيم المجالي في هذا القطاع الذي نظّمه مقاصد شريعتنا الإسلامية القائمة على دفع الضرر عن المسلم، يراعي من خلاله تنظيم الروابط بين أصحاب الحرف، فمثلا استنكر الفقهاء إحداث دور الصباغة والحدادة قرب المنازل، فجاءت الفتاوى لتقنن ذلك النشاط. فالمتتبع لأنظمة المتحكمة في الحرف يجدها نظاما للمعاملات وأنواع السلوك الذي يربط المجتمع الواحد.

ولتوضيح نظرة الإسلام للعمل والكسب المتمثلين في الحرف نستعرض أراء بعض العلماء في ذلك: فيقول ابن قنفد القسنطيني في وصفه للعمل "الكسب في الدين كالرأس للجسد"؛ كما يعرض شيخ الإسلام أبو حامد الغزالي(ت505هـ) مكانة الكسب والعمل في الإسلام فهو يميز بين الصنائع بحيث يقسمها إلى نوعين الأولى تلك التي احترفها السلف الصالح كالخرازة والتجارة والخياطة والقصارة والوراقة...والثانية التي يعتبرها السلف الصالح غير محمودة الصياغة والنقش والزخرفة وتشييد البنيان بحيث يرى أنها ملهاة عن الدين بالدنيا لكنه في موضع آخر يقول «فإن الصنائع والتجارات لو تركت لبطلت المعايش وهلك أكثر الخلق".

أما ابن خلدون فقد جعل من الحرف والصنائع معيار يقاس به تطور الأمم، وكلما زاد العمران ازداد بالضرورة النشاط الحرفي، وقد صنّف الصنائع حسب درجة تركيبها فيكون معيارا اجتماعيا نقيس به البداوة والتمدن، حيث يقول: "وإذا زخرَ بحرُ العمران وطُلبت فيه الكمالات، كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها؛ فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها، مما وذلك مما تدعوا اليه عوائد الترف وأحواله..."

وعموما فالعلماء قد أَعطوْ أهمية بالغة للعمل والنشاط الحرفي لأنه أحد مكونات النسيج الاجتماعي للحاضرة أو المدينة ومنهم من احترف بعض هذه المهن. كما اجتهدوا في تنظيم المجال الحرفي في المجتمع ويظهر ذلك في الفتاوى والنوازل والحكم فيها. معتمدين في ذلك على مبدأ دفع الضرر؛ ومنهم من ألف في ذلك كتب نذكر على سبيل المثال كتاب تحفة الناظر للعقباني(ت871هـ)

والذي يعتبر كتاب حسبة بامتياز يظهر فيه آداب الحسبة ويكشف عن مواطن الغش ويبين حكم الشرع فيه.